

السيد حميد الحسيني

دين الحرية والحرية الدينية
في القرآن

مؤسسة الامام علي (عليه السلام)
بوخارست

دين الحرية والحرية الدينية في القرآن



مؤسسة الامام علي (عليه السلام) - بوخارست

<https://imamali.ro>

بريد إلكتروني: info@imamali.ro

لا إكراه في الدين ٣

هموم المعنيين ٦

القاعدة الذهبية للأخلاق ٩

عقوبة ترك الدين ١٢

تدمير الأصنام أم التسامح؟ ١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

دين الحرية والحرية الدينية في القرآن

السيد حميد الحسيني^١

لا إكراه في الدين

لقد تناول القرآن الكريم مرات عديدة موضوع التدين الصالح وفي هذا السياق قد أبدى أكثر قدر من الاهتمام بالحرية والاختيار في تحقيق الدين الحنيف. وقد بلغ هذا الاهتمام الى حد قد رفض القرآن الكريم رفضاً قاطعاً لأي نوع من أنواع الإكراه في الشؤون الدينية، حيث أعلن بوضوح في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة:

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.

إن موضع الإيمان هو القلب^٢ والقلب لا يقبل أي فرض واجبار. ومن ثم كان جواب الأنبياء لأولئك الذين لم يقبلوا دعوتهم إلى الله وأيضاً للجبارين الذين كانوا يفرضون عليهم معتقداتهم: أن الدين لا يتوافق مع الإكراه. ونقرأ مثلاً لجواب الفريق الأولى في الآية ٢٨ من سورة هود، إشارة إلى قول النبي نوح ﷺ موجهاً لشرفاء قومه الذين لم يقبلوا دعوته:

أَنْزَلْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهَا أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ.

والمثال لجواب الفريق الثاني يمكن أن نراه في قول النبي شعيب ﷺ لأشراف قومه عند ما واجه منهم الإكراه الديني الذي تحكيه الآية ٨٨ من سورة الأعراف:

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ.

ومع ذلك، يصعب على كثير من المؤمنين أن يقبلوا أن الدين اختياري. ولعلمهم من باب حسن النية والنصح يظنون أن إكراه الآخرين هو في مصلحتهم؛ لأنهم سيسلكون طريق النجاة. إلا أن القرآن الكريم يعارض هذا

^١ . <https://t.me/hamidhossaini>

^٢ . كما جاء في الآية ١٤ من سورة الحجر: «وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ»

الوهم ويخاطب هؤلاء المؤمنين في الآية ٣١ من سورة الرعد أنه لو كانت في الإكراه الديني منفعة لفعله الله بسهولة:

أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا؟

ومع أن الرسول الكريم ﷺ لم يفرض على أحد قط أن يكون متديناً، إلا أنه كان حريصاً جداً على ترغيب الناس على الإيمان^٣، ولذلك يحذّره القرآن الكريم مرات عديدة بأنه ليس وكيلاً على الناس أو مسئولاً عنهم. يمكن العثور على أحد هذه التحذيرات في الآيتين ١٠٤ و ١٠٧ من سورة الأنعام، حيث يقول الله أولاً على لسان نبيه:

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ.

ثم في الآية التالية تكرر نفس النقطة ويخاطب النبي بقوله:

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ.

سنة الله وارادته جعلت استرشاد وهداية الأشخاص باختيارهم، لا بفرض أو إكراه أو أغراض الآخرين؛ ولذلك الآية ٥٦ من سورة القصص تذكر النبي الكريم ﷺ بأن الهداية تتحقق فقط على وفق هذه القاعدة التي وضعها الله:

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

وفي الآيتين ٢١ و ٢٢ من سورة الغاشية، ينبه الله نبيه إلى أن واجبه هو التحذير وليس السيطرة على الناس:

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ.

وهذه النقطة قد ذكرت في الآية ٩٩ من سورة المائدة بهذا البيان:

مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ.

لذلك، عندما "تبين الرشد من الغي" يجب ترك الناس أحراراً حتى يقرّروا من شاء أن يقبل هذه الحقيقة الواضحة، ومن لم يشأ أن يقبلها، فيمكنه أن يدوس على هذه الحقيقة ويصبح كافراً بإرادته واختياره. ومن هنا، جاء في الآية ٢٩ من سورة الكهف:

^٣ . ويرد مثال على هذه الرغبة القوية في الآية ٦ من سورة الكهف على النحو التالي: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا»

^٤ . وفي الآية ٢٥٦ من سورة البقرة مباشرة بعد إعلان «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» يقول: «قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ». إن التعبير عن هذه النقطة في هذه الآية خلافاً لرأي من اتخذها ذريعة لإبطال حكم القرآن في الحرية الدينية، تأكيد على عدم جدوى الإكراه

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ.

ومن الواضح أن هذا البيان ليس إذناً بمعارضة أمر الله؛ بل يعني أن الذي خضع له كل الوجود قد أراد أن يتحدد مصير الإنسان، خيراً كان أم شراً، باختياره وحده، وأن لا يكون للسلوك الديني القسري ولا للسلوك المناهض للدين بالإكراه أي تأثير على هذا المصير.

يقول البعض أن الدين في أصله اختياري، ولكن بعد القبول، يصبح الدين مجموعة من الفرضيات الإلزامية التي يجب الالتزام بها. كما يرى فريق آخر أن من واجبات أو سلطات الحكم الإسلامي تنفيذ الأحكام الدينية ولو بالقوة، ولكن عليهم أن ينتبهوا إلى أنه لا فرق بين أصول الدين وجوانبه الثانوية من حيث الالتزامات الأخلاقية أو العواقب في الآخرة. والقرآن يعتبر تطبيق الأحكام الدينية في المجتمع ذا قيمة ويعتبرها علامة على الإيمان، فقط إذا كان الناس أنفسهم قد اختاروا طوعاً الالتزام بها وخضعوا لها بتمام الاخلاص وقلب سليم. ولذلك نرى في الآية ٦٥ من سورة النساء التي تؤكد على ضرورة تنفيذ حكم النبي بلا أدنى شك، التأكيد على ضرورة القبول الطوعي والاستسلام القلبي لحكمه كعلامة على الإيمان الحقيقي، وليست في هذه الآية كلام حول فرض أحكامه على الناس:

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.

المغالطة أو سوء الفهم الكبير الذي يحدث هنا هو أن أنصار الإكراه الديني يتخذون من "التكليف والالتزام الشخصي" لمن أدرك حقيقة الدين وأحكامه ذريعة لتبرير "التدخل وإلزام الآخرين". وهذا في حين أنه لا يوجد دليل على صحة هذا التلازم، وعلى الرغم من أنه يجب على كل شخص أن يعتبر أمر الله إلزامياً وأن يؤديه كواجب قطعي، إلا أنه لا يحق لأحد إجبار الآخرين على أداء الأمور الدينية.

الديني. أي أنه عندما يتم شرح طريق الخير والشر بشكل جيد، ولكن لا يزال بعض الناس يختارون الطريق الخاطئ، فإن إجبارهم على العودة عن هذا الطريق لا فائدة منه، وكل شخص يختار طريقه ومصيره.

٥. وجاء في الآية ٨٣ من سورة آل عمران أن الوجود كله خاضع لمشئته الله ولا يحدث شيء بدون إرادته: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ»

٦. وقد ورد عدم فعالية الأعمال الاجبارية المناهضة للدين وعدم ضررها في الآية ١٠٦ من سورة النحل على النحو التالي: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

هموم المعنيين

لا شك ولا جدال في أن القرآن الكريم يعتبر تحرير الإنسان من القيود والسلاسل المختلفة من أهداف الدين الحنيف؛ ولكن بعض الناس يجعلون هذه الحرية منحصرة في الأبعاد الروحية ويتجاهلون موقف القرآن الواضح من الحرية السياسية والاجتماعية والعقائدية. هم يقولون إننا إذا أطلقنا سراح الإنسان الجشع والمفسد فلن ينتج عن ذلك إلا الفساد والدمار. وبالتالي فإنهم يعتبرون تزايد الحرية الاجتماعية سبباً لتناقص الحريات الروحية. ولكن القرآن الكريم ينظر إلى الإنسان بشكل مختلف، ورغم التحذيرات العديدة من مخاطر الشهوة والأنانية وملازمة الطبيعة المتسرفة للإنسان، فإنه يمدح كرامة بني آدم وتفوقهم على كثير من المخلوقات،^٧ واعتزاز الإنسان بحمل أمانة الله،^٨ واعتماده على مكانته كخليفة لله؛ وسجود الملائكة له^٩ يعتبر كل هذه التكريمات نتيجة لحيثه واختياره، لأنه كما ورد في الآية ١٦٥ من سورة الأنعام، فإن البشر قد اعطيت هذه المكانة الرفيعة حتى يبتلى ويستحق به الثواب والعقاب:

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ.

وهذه هي نفس النقطة التي تم تقديمها كفلسفة للحياة والموت في الآية الثانية من سورة الملك:

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ.

ومع ذلك، هناك دائماً بعض الأشخاص قصيري النظر الذين يعتقدون أنه نظراً لأهمية وأولوية الهداية وإرشاد الناس إلى الإيمان فمن الممكن التسامح مع مرارة وقبح الإكراه الديني ويبررون هذه الطريقة السيئة، كبعض

^٧ . في الآية ٧٠ من سورة الإسراء نقرأ: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا»

^٨ . ويقول في الآية ٧٢ من سورة الأحزاب: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»

^٩ . وهكذا تبدأ قصة خلق الإنسان في الآية ٣٠ من سورة البقرة: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ»

^{١٠} . بالإضافة إلى ذكر سجود الملائكة لآدم في بداية سورة البقرة وفي آيات أخرى، في الآية ١١ من سورة الأعراف ورد ذكر سجود الملائكة لآدم بعد خلق وظهور جميع البشر: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ»

المسلمين الذين كانوا في الأيام الأولى للإسلام من الذين رافقوا النبي ﷺ وكانوا يظنون أنهم أكثر تعاطفاً وأكثر اهتماماً بمصالح الدين منه.

كما ذكر في حديث رواه الإمام الرضا ﷺ بسند ذهبي عن أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ أن بعض هؤلاء الوهميين كانوا يصرون على رسول الله ﷺ أن يكره الناس على الايمان ويحرمهم من حريتهم لزيادة قوة وسلطان الإسلام. ولكن رفض النبي ﷺ هذه الفكرة وقال: "مَا كُنْتُ لِأَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدُعَةٍ لَمْ يُحْدِثْ إِلَيَّ فِيهَا شَيْئاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ" وهنا نزلت الآية ٩٩ من سورة يونس:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

وفي تكملة هذا الحديث المنير، تم شرح معنى الآية على أن الله تعالى يقول: لو شئت لأجبرت الناس على قبول الدين «عَلَى سَبِيلِ الْإِلْجَاءِ وَالْإِضْطِرَارِ فِي الدُّنْيَا كَمَا يُؤْمِنُونَ عِنْدَ الْمُعَايَنَةِ وَرُؤْيَةِ الْبَاسِ فِي الْآخِرَةِ وَ لَوْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِمْ لَمْ يَسْتَحِقُّوا مِنِّي ثَوَابًا وَلَا مَدْحًا لَكِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا مُخْتَارِينَ غَيْرَ مُضْطَرِّينَ لِيَسْتَحِقُّوا مِنِّي الرَّزْقَ وَالْكَرَامَةَ وَ دَوَامَ الْخُلُودِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ»^{١١}

ولهذا السبب نرى أن القرآن الكريم يقول بكل صراحة ودون أي تنازل أو خوف عدة مرات ومن جملتها في الآية ٢٩ من سورة الكهف:

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ.

إن خالق الكون يعلم جيداً عواقب فتح طريق الشر والفساد أمام الراغبين في الخطيئة^{١٢} ومع ذلك يقول: ذرهم يغرقون في ألعابهم^{١٣} وطغيانهم وشهواتهم وآمالهم ولكن يجب أن تستمر^{١٤} وتبقى الحرية وإرادة الانسان. ولهذا السبب يحكى الله تعالى في الآية ٢٨ من سورة هود كلام النبي نوح ﷺ الذي كان يقول لقومه عندما لا ترون هذه البينات الواضحة ولا تعجبكم هذه الرحمة الإلهية فلماذا نكرهكم عليها؟

^{١١} . الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا (ع)، طهران؛ جهان: ج ١، ص ١٣٤.

^{١٢} . في سورة القيامة الآية ٥ نقرأ: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ»

^{١٣} . وفي الآية ٩١ من سورة الأنعام نقرأ: «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»

^{١٤} . في الآية ١١٠ من سورة الأنعام ورد: «وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتُهُمْ وَابْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»

^{١٥} . وفي الآية الثالثة من سورة الحجر نقرأ: «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ.

نعم اذا كانت المساحة مفتوحة، سيحصل الأعداء أيضاً الفرصة للإعلان و نشر أفكارهم؛ لكن الخالق الذي أقام هذه الابتلائات، هو بنفسه قرر أن يطلق أيدي الشياطين في عداوتهم للأنبياء وسمح لهم أن يقولوا أكاذيبهم حتى يختار الناس بأنفسهم.

ويؤكد القرآن على حرية التعبير لمعارضيه، لأنه يعتبر تلقي الهداية الإلهية في ضوء تجنب عبادة الطواغيت التي أعطاهها الله أيضاً الفرصة والمهلة؛ ويعتبر القرآن أن اكتمال البشرية يكمن في طريق الاستماع إلى مجموعة متنوعة من الآراء واختيار أفضلها. وعليه نقرأ في الآيتين ١٧ و ١٨ من سورة الزمر:

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ.

رغم أنه لا يوجد إنسان عاقل يحب الحرية اللامحدودة، لا يوجد في هذا الكتاب كلام حول حظر ورقابة المنتجات ووسائل الإعلام الخاصة بالمدارس الفكرية الأخرى ووصفها بعنوان وهمي كالكتب الضلال؛ بل بدلاً من ذلك، يُنصح المؤمنون بمعاملة الجميع، حتى أعداء الدين، بالعدل والإنصاف وبناءً على القاعدة الذهبية للأخلاق التي تقول " عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك "، يعلّمنا أنه إذا ما وضعنا أي قيود على حرية خصوصنا، فسوف تكون هذه القيود هي نفسها التي لن نمانع في تطبيقها علينا.

إذا انتبهنا لهذه النقطة نرى أنه كما تقول الآية ١٩٤ من سورة البقرة لا يجوز حرمان أحد من الحرية الا أولئك الذين ينتهكون حقوق الآخرين وهذا هو ما يتوافق مع التقوى:

فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ.

^{١٦}. وقد ورد هذا القول بشكل واضح في الآية ١١٢ من سورة الأنعام: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ»

القاعدة الذهبية للأخلاق

وان كانت قمة القيم الإنسانية تنعكس في الأخلاق الفردية وفضائلها التي يمكن الحصول عليها من خلال التمسك بالحقائق المقدسة والسامية، ولكن الأخلاق الاجتماعية هي التي توفر ضروريات الحياة والفرص المتساوية للتوجه والسير نحو الفضائل.

الخبرة المكتسبة من آلاف السنين من الحرب والمذابح وتسبب المعاناة التي ارتكبتها أيدي أولئك الذين يزعمون لأنفسهم الفضائل الأرضية أو السماوية، جعلت المفكرين الأخلاقيين الخبراء بدلاً من محاولة تقديم تعريف مشترك لأعلى القيم الفردية، أن يبذلوا جهودهم لتحديد الحد الأدنى للحياة الجماعية وخلق بيئة يتمتع الجميع فيها بفرص متساوية لاختيار الأفضل.

القرآن الكريم وان كان يصّر على القيم السماوية ويعتقد أن تحقيق الفضائل يعتمد على الإيمان والسلوك التوحيدي^{١٧} إلا أنه عندما يتحدث عن الأخلاق الاجتماعية، فإنه ينظر من وجهة نظر أرضية للغاية، فيؤكد على المصالح الإنسانية المشتركة والحياة السلمية لجميع المعتقدات والتفضيلات.

ومن خلال دراسة عشرات من الآيات القرآنية التي تحتوي على توصيات اجتماعية، نجد أنه لا يوجد في أي آية منها التذرع إلى شيء غير القسط والعدل، وكل المواضيع التي تمت الإشارة إليها من كتابة الديون^{١٨} ونسبة الطفل المتبني^{١٩} إلى رعاية الأيتام^{٢٠} وإصدار الأحكام^{٢١} وحتى القضايا السياسية الكبرى، كلها تدور حول هذا المحور نفسه، إلى حد اعتبر الله تعالى في الآية ٢٥ من سورة الحديد توفير الظروف اللازمة لإدارة المجتمع من قبل الشعب على أساس العدل هدفاً لبعثة الأنبياء:

^{١٧} . الآية ٧٥ من سورة طه تنص على هذا الأمر: «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى»

^{١٨} . الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تتضمن نصائح حول كتابة الإيصال لمبلغ ومدة التقسيط حتى تؤكد على ضرورة عدالتها: «وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ»

^{١٩} . في بداية الآية ٥ من سورة الأحزاب هكذا يذكر القرآن سبب ضرورة نسبة الأبناء المتبنين إلى الآباء: «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ»

^{٢٠} . وفي الآية الثالثة من سورة النساء يعبر القرآن عن خوف عدم العدالة كدليل لإباحة تعدد الزوجات ويعتبر أيضاً مراعاة العدل شرطاً لإباحة تعدد الزوجات: «وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا»

^{٢١} . في الآية ٥٨ من سورة النساء نقرأ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا»

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.

وتتضح لنا أهمية هذه النقطة عندما نجد أنه في جميع الاستخدامات الكثيرة للقسط والعدل وفي التوصيات المكررة من القرآن والأحاديث، لم يتم تقديم تعريف بديل للعدالة عن تعريفها الأصلي التقليدي الذي يستند إلى فهمنا البشري والأرضي للخير والشر كمقياس للسلوك الإنساني الأخلاقي. وعلى هذا الأساس وردت كلمتا "المعروف" و"العرف" في القرآن الكريم أربعين مرة، تأكيداً على ضرورة إقامة علاقات اجتماعية عادلة. كما أن الآية ١٩٩ من سورة الأعراف تلزم النبي (صلى الله عليه وآله) بالثقة بالضمير الإنساني المشترك للمجتمع، ومطالبة الناس بالعيش وفقاً للفهم المشترك للخير والشر المعترف به فيما بينهم:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ.

إن سر هذه الثقة بالإنسانية يأتي من النظرة التي ينظر بها القرآن إلى الطبيعة الإلهية للإنسان، ويؤمن بأن نداء ضميرنا الداخلي هو كلام الله وأمره، وأن الدين الحقيقي الحنيف ليس إلا الاستسلام للحقيقة التي نجدها في أنفسنا. وهذه هي ما تتجلى في الآية ٣٠ من سورة الروم:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

لا شك أن هذه الآية لا تعني أن كل الإدراكات صحيحة ولا أن كل الرغبات فطرية، لأن التناقض بين كثير من الإدراكات وقبح كثير من الرغبات الشهوانية ظاهر إلى درجة لا يمكن معه لأحد أن يعتبرها إلهية؛ ولكن حقيقة قدرتنا على التعرف على خطأ الآراء بسبب تعددها وتناقض مواقفها، واستشعارنا قبح بعض الرغبات والسلوكيات، خير دليل على وجود أساس موثوق للتمييز بين الصواب والخطأ في الضمير الإنساني.

نعم من المؤكد أننا إلى جانب الطبيعة الإلهية والقدرة على التمييز بين الخير والشر، مثقلون بالغرائز والشهوات التي تأسر حتى العقل وقوة التفكير وتعوق قدرتنا على الفهم والتمييز. ولكن من هذه النقطة لا نستطيع أن نصل إلى نتيجة مفادها أن ما يقوله الآخرون خطأ وأن إدراكنا لنص مقدس، أو تجربة نظرية، أو أي أساس آخر فقط هو الحق الذي ينبغي أن يكون معياراً للصواب والخطأ. لأن العوامل نفسها التي دفعت الآخرين إلى التوصل إلى استنتاجات خاطئة والدفاع عنها بشكل حاسم، قد تكون قد تركت نفس التأثير على إدراكنا ونظرتنا، وإن استبعاد أنفسنا ومدرستنا الفكرية من هذا المبدأ العام ليس له أساس سوى تعظيم الذات والغطرسة.

في هذه الحالة، فإن الطريقة الوحيدة للاستفادة من فطرتنا الإلهية وحفظه في مأمن من الآفات المحتملة، هي الخروج من الموقف الذي تؤثر فيه الشهوة والأنانية والاستقرار في مكان لا مجال لتلاعب الرغبات النفسانية

فيه حتى نتمكن من معرفة نداء فطرتنا غير الملوثة بالغرائز الجسمانية. نحن إذا لم نخرج من قيود الافتراضات والثقة المفرطة بالنفس، حتى لو كنا متنعمين بأفضل الكتب المقدسة والتعاليم الالهية، فما زال من الممكن أن يتأثر فهمنا لتلك المتون بأنانيتنا. ولكن إذا وضعنا أنفسنا مكان الآخرين واستمعنا إلى نداء الضمير عن طريق شخص آخر، فسوف نقدر أن نفهم بشكل أفضل أن هذا النداء نداء الهي وسنلزم أنفسنا بـ «أن نحب للآخرين ما نحبه لأنفسنا».

عقوبة ترك الدين

عادةً بعد بيان وشرح مخالفة القرآن وأهل البيت ﷺ للاكراه الديني، فإن أول سؤال يُطرح هو: إذا لم يكن هناك إكراه أو فرض في الدين، فلماذا لا يُسمح للناس بتغيير دينهم؟ ولماذا يُغلق طريق حرية الاختيار بهذه العقوبات الثقيلة، مثل عقوبة الإعدام للمرتد؟ للإجابة على هذا السؤال المهم والضروري نحتاج إلى دراسة رأي القرآن فيما يتعلق بالردة ونحصل عليه دون الاعتماد على ما هو المشهور.

ولكي نفهم موقف القرآن في التعامل مع الردة، بالإضافة إلى الانتباه إلى الآيات التي تعتبر الدين الاجباري باطلاً وغير مرغوب فيه، من الضروري أيضاً دراسة أكثر من ١٥ آية تدين صراحةً الارتداد عن الدين وتحدد عقوبات شديدة عليه.

تجدر الإشارة إلى أن القرآن أينما تحدث عن الكفر بعد الإيمان و ألقى اللوم على المرتدين، فإنه يشير إلى أولئك الذين كانوا يعرفون الأدلة الواضحة التي تبين أن الدين هو الحق، ولكنهم أعرضوا عنه عن عمد ووعي؛ أولئك الذين تم وصفهم في الآية ٨٦ من سورة آل عمران على النحو التالي:

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. ولهذا السبب وصف هؤلاء الأشخاص بأنهم من الضالين في الآية ١٠٨ من سورة البقرة^{٢٢} وأنهم هم الفاسقون في الآية ٨٢ من سورة آل عمران^{٢٣} وفي الآية ١٤٩ من سورة آل عمران اعتبرهم من الخاسرين و في الآيات ٨٦ إلى ٩١ من نفس هذه السورة وعدهم بعقوبات شديدة وأبدية وكذلك عدم قبول توبتهم وفديتهم . وكذلك

^{٢٢} . «وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ»

^{٢٣} . «فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»

^{٢٤} . «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذَوْكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ»

^{٢٥} . «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّا عَلَيْنَاهُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ (٩١)»

هناك آيات كثيرة أخرى في القرآن الكريم تصف عقوبات الردة مثل حبس الأعمال الصالحة ، والحرمان من مغفرة الله وهدايته^{٢٧} والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة^{٢٨} والوقوع في غضب الله وعقابه العظيم^{٢٩} ومع ذلك لم يتم الإشارة ولو مرة واحدة إلى تطبيق الحدود الشرعية على المرتدين.

نرى أن القرآن الكريم قد تناول موضوع الارتداد عدة مرات وحاول منع هذه المعصية والانحراف بكل حزم وجدية من خلال تحذير مرتكبيها من تلقي أشد العقوبات وأعظمها في الآخرة، لكنه لم يذكر أي عقوبة دنيوية في هذا السياق؛ وهذا له معنى كبير ويظهر بوضوح أن المدرسة التي تحمل لواء حرية الفكر والعقيدة وتصر مراراً وتكراراً على الطبيعة غير الإلزامية للشؤون الدينية، لن ترضى أبداً بأحكام ومعالجات تتعارض مع تلك الادعاءات وتدمر أي فرصة لحرية الاختيار.

نعم، لقد أراد البعض أن يجعلوا أمر الله بانتحار بني إسرائيل الجماعي بعد عبادة العجل المذكور في الآية ٥٤ من سورة البقرة، أو وعدهم بالعقوبات الدنيوية في الآية ٧٤ من سورة التوبة، دليلاً على ضرورة تحديد عقوبات للمرتدين، ولكن هذا الحكم لا يستمد من هاتين الآيتين ولا يمكن نقض الدلائل المتعددة الواضحة التي تقول أن عقوبة المرتدين في الدنيا تخالف القرآن بهذه الحجة الضعيفة.

إن الآية في سورة البقرة تصف عقوبة عبادة العجل على هذا النحو:

وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

وإن كان رأي كثير من المفسرين أنه يفهم من هذه الآية أن عقوبة بني إسرائيل بعد ارتدادهم وعبادتهم للعجل هي أن يقتل بعضهم بعضاً، ولكن بعد وجود احتمالات متعددة في معنى الآية كنزول الحكم لاختبارهم وعدم تنفيذه عليهم، أو عفوهم وغفران الله لهم لتوبتهم، لا يمكن لنا أن نصل إلى نتيجة واضحة حول يقينية وديمومة

^{٢٦} . «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»

^{٢٧} . «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا»

^{٢٨} . «وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ»

^{٢٩} . «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

مثل هذا الحكم حتى بالنسبة الى شريعة النبي موسى ﷺ، ناهيك عن تطبيق أحداث حادثة معينة في شريعة أخرى على آيات القرآن وإصدار مثل هذا الحكم الثقيل.

ولكن العقوبة الدنيوية المعلنة في الآية ٧٤ من سورة التوبة فهي تتعلق بالكفار والمنافقين الذين تكلموا بألفاظ كفرية ونقضوا العهود وبدؤوا الحروب بعد إسلامهم، ولذلك هذه الآية تطلب منهم أولاً التوبة ثم تقول:

وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

وهنا إذا انتبهنا إلى سياق العبارة، فسوف نفهم أن معنى العقوبة الدنيوية هو الهزيمة والدمار في الجهاد الذي أمر الله تعالى رسوله بالقيام به بشدة في الآية السابقة؛ فهذه المسألة لا علاقة لها بالظروف غير القتالية ولا بالأحكام العامة التي تصدر في حالة الردة.

وهناك فريق آخر من الفقهاء، لتبرير الفتوى الشهيرة وحل مشكلة تناقضها مع آيات القرآن، يربطون هذه العقوبة بأفعال مثل إشاعة الردة والشك بين المسلمين، ويقولون: "إن تغيير الرأي وترك الإسلام في حد ذاته ليس له عقوبة دنيوية، ولكن لا يجوز لمثل هذا الشخص التعبير عن اعتقاده الجديد ونشره، وإذا فعل ذلك فإنه يعاقب بجريمة الفتنة". ولكن هذا التبرير لا يبدو متوافقاً مع وجهة نظر القرآن، وبالفحص الدقيق يظهر أن هذا الكتاب يكتفي بالتحذير من عذاب الآخرة عند التعامل مع المرتدين الذين ينوون من ارتدادهم الاستهزاء بالدين وإضعافه؛ كما نقرأ في الآيتين ٦٥ و ٦٦ من سورة التوبة:

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ.

فإننا نرى أن هاتين الآيتين اللتين أراد البعض الاستناد بهما لتأييد قتل المرتدين، مثل كثير من الآيات المشابهة التي فيها رد لهذه الأعمال القبيحة، لا يوجد فيهما ذكر للمعاملة العنيفة أو العقوبة الدنيوية رداً على هذه الممارسات الساخرة والمهينة؛ وذلك لأن الخالق الحكيم يعلم أن القسوة على الإهانات ومعاقبة الناس على معتقداتهم الباطلة سوف يجعل الدين والمتدينين بمظهر يبدو أنهم غير العقلانيين الذين ليس لهم الثقة بالنفس، مع أن هذه العقوبات غالباً لا يؤدي إلى إصلاح أحد، ولكن ممارسة العفو والتسامح في الحياة الاجتماعية وتأجيل عقوبة هؤلاء إلى الدار الآخرة يمكن أن يكون أساساً لإصلاح بعضهم وسوف يقدم وجهاً جميلاً للدين يجذب القلوب الطاهرة. ولذلك فإن القرآن في الآية ٥٤ من سورة المائدة، وبعد الإشارة إلى إمكانية ارتداد بعض المسلمين، بدلاً من بيان أي معاقبة للمرتدين، يعتبر ما يكتسب من هذه الطريقة الجميلة تعويضاً لهذه الخسائر بقوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ...

إن تناغم هذه الآيات مع آيات أخرى تعبر عن عدم الاكراه في الدين لا يترك مجالاً للشك في أن القرآن لا يوافق على معاقبة من يترك الإسلام، بل يعتقد أن إجبار الناس على البقاء في الدين طريقة المستكبرين. ولهذا في الآية ٨٨ من سورة الأعراف، يحكي القرآن هذا الأسلوب من رؤساء معارضي النبي ﷺ والجواب الذي ينقل عنه ﷺ هو البرائة عن الدين الإجباري:

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ.

نفس هذا المنطق القسري في إجبار الناس على قبول الدين، يُنسب إلى أعداء جميع الأنبياء في الآية ١٣ من سورة إبراهيم:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. ومن الأمثلة الواضحة للعداوة مع أسلوب الأنبياء المحبين للحرية فرعون، الذي استخدم نفس هذا الموضوع أي تبديل الدين والقلق من تضييع معتقدات الناس كذريعة لعنفه وإجبار الناس وفقاً لما تروي الآية ٢٦ من سورة غافر:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ. فعلى ما بيّننا لا يبقى شك في أن القرآن لا يؤيد العقوبات في الحياة الدنيا لمن يترك الدين، ولكن لماذا أصدر معظم الفقهاء، استناداً إلى عدد من الأحاديث والسيرة الجارية بين المسلمين، فتاوى للعقوبات الشديدة مثل الإعدام والمعاملة القاسية ضد من بدّل دينه، هذا يتطلب دراسة منفصلة ومفصلة حتى يتم التحقق من صحة التقارير التاريخية والحصول على السياقات السياسية لمثل هذه السلوكيات حتى تتمكن من فهم دور الحكومات الاستبدادية في استغلال هذا الحكم وبعد معرفة الفرق بين منطق القرآن وعمل المسلمين، نفهم بشكل أفضل أبعاد مهجورية كتاب الله في الأمة الإسلامية.

تدمير الأصنام أم التسامح؟

وهناك سؤال آخر يطرح عادة بعد بيان النظرة القرآنية لحرية الاعتقاد وهو: إذا كان التسامح مع الآراء المختلفة أمراً جيداً، فلماذا حطم النبي إبراهيم عليه السلام أصنام المشركين، ولم يحترم حريتهم ولا عقائدهم كما ورد في الآيتين ٥٧ و ٥٨ من سورة الأنبياء:

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جَذَآءًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ.

وللإجابة على هذا السؤال، وخلافاً للتبريرات التقليدية، ينبغي أن نلاحظ أنه عندما نريد أن نبين تعاليم مدرسة، من الضروري فصل المبادئ والأسس والأمور القطعية عن الأمور الفرعية والغموض والاستثناءات والحالات النادرة. على سبيل المثال، لا يمكننا أبداً أن نعتمد على ما ورد في الآية ٧٤ من سورة الكهف في قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ التي تحكي إعدام شخص قبل ارتكاب أي جريمة ونفعل مثله و باستناد هذه الحكاية نرفض الأدلة الواضحة التي تؤكد على خطأ الانتقام قبل الجريمة؛ ولهذا نرى أنه لم يسكت النبي موسى عليه السلام عن هذا العمل، رغم أنه وعد بعدم الاعتراض أو السؤال، لأنه لم يكن على استعداد لقبول انتهاك المبادئ الراسخة لمنهج بـسبب مسألة معينة لم يكن عارفاً بحكمتها.

إن أولئك الذين يعرفون القرآن والسنة يعرفون جيداً أن كرامة الإنسان وحرية من أهم المبادئ الأساسية والنهائية لهذه المدرسة، وكل الأحكام والأوامر الإلهية تكتسب معنى وأهميتها بالاعتماد على هذه المبادئ. كما أن حرمة سب وإهانة القيم المقدسة للآخرين أيضاً من التعاليم المؤكدة في القرآن، كما ورد بوضوح في الآية ١٠٨ من سورة الأنعام:

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

إن ضرورة التسامح واحترام المعتقدات المختلفة إذا كانت لا تنتهك حقوق أحد، هي أيضاً مما نفهمها بوضوح من عقولنا ومنطقنا وخبرتنا ويؤكد عليها القرآن الكريم مرات عديدة. ومن أوضح هذه التأكيدات ما جاء في الآية الثامنة من سورة الممتحنة:

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.

٣٠. «فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَفَيَا غُلَامًا فَكَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا»

إذا انتبهنا إلى هذه النقاط، عندما نواجه موقفاً مثل تدمير الأصنام ولا نعرف خلفياته وجوانبه، نعلم أنه يجب علينا تفسير هذه المواقف بطريقة لا تتعارض مع المبادئ والأسس الثابتة للقرآن. والسبب في ذلك هو أنه في هذا الموقف، هناك احتمالات عديدة للاستثناءات بسبب ظروف مختلفة أو اختلاف الشرائع، أو أن تلك الأصنام كانت مرتبطة بمنظمات تقوم بالظلم والطغيان على الناس أو غير ذلك من الاحتمالات. وبالتالي، فإن النظر في هذه الجوانب يساعدنا على فهم عدم التناقض بين قصة تدمير الأصنام والدلائل التي تؤكد على التعايش السلمي بين الأديان المختلفة وتحريم سب الأصنام.

ومن هذا المنطلق، حتى لو لم يستطع أحد أن يفسر طبيعة تدمير الأصنام إلا على أنها سلوك هجومي، ويعتقد أن هذا الفعل في جوهره إهانة للمشركون وإثارة الضيق والإساءة، فإنه يكفيه أن يفهم أن هذه المهمة الإلهية الموكلة إلى فرد فريد في سياق استثنائي، لا تتعارض مع المبدأ العام من الإسلام الذي أوصى الله تعالى به الجميع. وبالتالي، لا يمكن لأحد أن يستخدم هذا كذريعة للإساءة إلى الآخرين وإهانة مقدساتهم، كما حدث من أفعال داعش التي هدمت كل ما اعتبروه شركاً، وحرّموا الآخرين من حقوقهم، وقدموا صورة غير أخلاقية للدين.

وهنا ينشأ سؤال أو اعتراض آخر يشغل أذهان أولئك الذين يؤمنون بالتسامح الديني. فهم مع إقرارهم بعدم صحة إهانة مقدسات الآخرين، لا يحبون استخدام كلمة "الاحترام" في التعامل مع المعتقدات الخرافية والباطلة للآخرين، ويعتقدون أن احترام العقيدة يعني تكريمها ورفعتها واعتبارها غير قابلة للنقد. ولكن هذا الانطباع غير صحيح، ولا تحمل هذه النظرة مثل هذه المعاني. فعندما يستخدم شخص كلمة «الاحترام» فيما يتعلق بالمعتقدات التي يراها باطلة، فهذا لا يعني بالتأكيد أنه قد قبل تلك المعتقدات أو وافق عليها، بل يعني أنه اعتبر الاحترام كحاجز وحماية أمام الإهانات والسلوكيات الهدامة التي تحدث عادة مع أشخاص محرومين من حقوقهم الطبيعية.

إن الإنسان عندما لا يحترم معتقداً ما فإنه يعطي نفسه الحق في إهانة هذا المعتقد والسخرية منه بدلاً من انتقاده و حتى التعبير عن البرائة منه. ومن يقول إنه يحترم فرداً ما دون أن يحترم معتقداته فإنه لا يلعب إلا بالكلمات؛ وذلك لأن شخصية الإنسان وهويته لا تتحدد بجسده المادي، بل تقوم على معتقداته وأفكاره التي تتشكل فيه على أساس ظروفه ومنظوره.

إن القرآن الكريم هو كلام الله الذي يعرف الإنسان جيداً ويدرك أن عقلية الإنسان تندرج ضمن إطار الظروف والقيود الأخرى المحيطة به ومن الطبيعي أن يظن كل إنسان أن معتقداته هي الحقيقة، ومعتقدات الآخرين

خرافية وكاذبة. وإذا سمحنا لأنفسنا بإهانة أولئك الذين يفكرون بشكل مختلف عنا فلا يبقى مجتمع في مأمن من الحروب والصراعات التي لا نهاية لها.

إن الاستثناء الوحيد لمبدأ احترام معتقدات الآخرين هو أسلوب تعاملنا مع المعتقدات التي تحرم الآخرين من حقوقهم الطبيعية وتعرضهم للخطر. لأن مواجهة الظلم والاستبداد والدفاع عن الحقوق التي تحظى بقبول واسع النطاق أمر محبب ومعترف به من قبل جميع الأفراد، وكما رأينا في الآية الثامنة من سورة الممتحنة فإن الاستثناء الوحيد الذي يذكره القرآن في العيش السلمي مع أشخاص ذوي معتقدات وأفكار مختلفة هو الظلم وانتهاك سلامة الآخرين وحقوقهم.

بعض الناس يعتقدون أن احترام معتقدات الآخرين يعني إضفاء الشرعية عليها ولذلك يسردون صفحة كاملة من المحتويات بذكر معتقدات أمثال داعش وغيرهم من المجرمين والمنحرفين لإثبات أنه ليس كل المعتقدات تستحق الاحترام. ولكن هذا نابع من عدم انتباههم إلى حقيقة أن بيئتنا تؤثر على وجهات نظرنا. كما أنهم لا ينتبهون إلى أنهم يعتبرون داعش أمثلة على السوء والانحراف لأن أهم سماتهم عدم احترام معتقدات الآخرين. ولم يدرك هؤلاء أننا كأشخاص عاديين لسنا المالك الحصري للحقيقة ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه اكتسب اعتقاداً صحيحاً من المستحيل أن نجد أي اعتقاد أسمى أو أصدق من ذلك. إن أعظم المفكرين والعلماء متضاربون في آرائهم، وقد أدركوا أخطائهم مرات عديدة، ولذلك فإنهم دون الوقوع في فخ النسبية أو التقليل من قيمة معتقداتهم، ينظرون إلى آرائهم الأخيرة بعين النقد.

في هذه الحالة، الحل الوحيد الذي يبقى أماناً لتصحيح المعتقدات هو من خلال الحوار والمحادثات العقلانية والاعتماد على الضمير الإنساني المشترك. نحن ملزمون ببذل قصارى جهدنا لزيادة الوعي وفهم أخطائنا من أجل تقليص المسافة بيننا وبين الحقيقة.

على الرغم من أنه ليس كل الأفراد لديهم نفس القدرة على الوصول إلى مصادر الحقيقة وظروفهم وكذلك وجهات نظرهم تجاه الواقع مختلفة، إلا أن الجميع يفهمون أهمية الضمير الإنساني وقبح تجاهل ما فهموه؛ ولذلك فإن المعيار الوحيد الذي لدينا لتحديد مستوى القيمة والاحترام الممنوح للآخرين، هو القيم الأخلاقية، ولا ينبغي لنا أن ننظم احترام الآخرين على أساس ما إذا كانت معتقداتهم تتوافق مع الحقيقة. فالمشكلة الرئيسية لأمثال داعش وغيرهم من المجرمين ليست معتقداتهم الخاطئة، بل إن ما يجعلهم أكثر كراهية هي أخلاقيتهم وخطرستهم وتجاهلهم للضمير الإنساني والحوار.

الحالة الوحيدة التي يُسمح لنا فيها بعدم احترام معتقدات شخص ما هي إذا كنا على دراية بجميع حدوده وظروفه، وهذا لا يكون إلا إذا تأكدنا من تقصيره أو عناده في الاستجابة لوعيه من الحقيقة المعروضة عليه؛ وهذا الحكم صعب للغاية، إلا في حق قليل من الناس، لا يقدر على القيام به إلا الله الذي هو "علام الغيوب" أو أوليائه.

والحمد لله رب العالمين